مفهوم
السنّة الشريفة

.. بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ..

.. ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ..

.. كنّا قد بيّنا في المحطّة السابقة أنَّ المنهجَ – كلَّ المنهج – والمعجزةَ – كلَّ المعجزة – تركّزا في النصّ القرآني ، واستقلا استقلالاً تاماً عن الجانب الشخصيّ للنبيّ ﷺ .. وبيّنا أنَّ حكمةَ اللهِ تعالى في تدرّج رسالته للبشريّة ، اقتضت أن تكونَ الرسالةُ الخاتمةُ ، منهجاً ومعجزةً ، مُحتواةً في نصٍّ مكتوب هو النصُّ القرآني .. وبالتالي فمفهوم الحكمة الذي يُسمّى تاريخيّاً بالسنّة ، لا ينفكُّ – أبداً – عن دلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى ..... كيف – إذاً – نُوفّقُ بين هذه الحقيقة القرآنيّة من جهة ، وبين موروثاتنا التاريخيّة عن السنّة من جهةٍ أُخرى ، تلك الموروثات التي تُصوِّرُ السنّةَ نصاً مُستقلاً بأحكامِه عن أحكامِ كتابِ اللهِ

تعالى ؟ .. للإجابةِ على هذا السؤال ، لا بدّ لنا من شرح الفارق بين دلالات كلمتي الرسول والنبي في كتابِ الله تعالى ، ولا بُدَّ من تبيانِ حدودِ كلٍّ منهما في شخصِ النبيِّ ﷺ ، وفي أعمالِه وأقوالِه ..

.. كلمةُ النبيِّ تعني النقاءَ والطهارةَ والخلاصَ للهِ تعالى ، ولا تقتضي حتميةَ حَمْلِ رسالةٍ جديدة .. لذلك ليس كلُّ نبيٍّ رسولاً .. بينما كلمة الرسول تعني حاملاً لرسالةٍ يُطالَبُ ذلك الرسول بإيصالِها من مُرسِل إلى مُرسَل إليهم .. وفي جانب الرسالة السماويّة فإنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ .. فالرسول هو نبيٌّ يحملُ منهجَ الله تعالى للبشريّةِ ..

إذاً كلمةُ النبيّ تُصوِّرُ جانبَ النقاء والطهارة والخلاص في شخص الموصوف بها .. وكلمةُ الرسول تُصوِّرُ جانبَ حملِ منهجِ الله تعالى وإيصالِه إلى المُرسَل إليهم .. لذلك فكلمةُ النبيِّ تتعلّقُ بأمورٍ شخصيّة كالزواج وغير ذلك .. لننظر في النصوص القرآنيّة التالية

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٣٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٥٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم : ١]

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : ٣]

.. ولو نظرنا في العبارة القرآنيّة : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ، لرأينا الفارقَ جليّاً بين النبيّ كصفةٍ تتعلّق بالطهارة والخلاص لله تعالى وبين محمّدٍ كشخصٍ حاملٍ لهذه الصفة .. ففي قولِه تعالى : ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، نرى صياغةً قرآنيّةً تتعلّقُ بصفة النبوّة ، وليس بالجانب الشخصي ، ونراها بصيغة الغائب .. فالله تعالى لَمْ يقل : (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لَك إِنْ أردتَ أَنْ تَسْتَنْكِحَهَا) ..

.. بينما في العبارة القرآنيّة : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نرى صياغةً قرآنيّةً تتعلّقُ بالجانب الشخصي ، ونراها بصيغة المخاطَب .. فالله تعالى لم يقل : (خَالِصَةً للنبيِّ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ، ولم يقل : (خَالِصَةً لَه مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ، وذلك بصياغةٍ مُشابهةٍ لِصياغةِ العبارات القرآنيّة السابقة لها ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ .. إنّما يقولُ : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

.. فلو كان الخطابُ موجّهاً لجانب النبوّة ومقامِها فقط دون التعلّق بالجانب الشخصي ، لكان على الشكل : (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَه مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) .. ولو كان الخطابُ موجّهاً للجانب الشخصيّ لمحمّد ﷺ فقط دون التعلّقِ بمقام النبوّة لكان على الشكل : (إِنْ أَرَدتَ أَنْ تَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) ..

.. نقرأُ من ذلك .. أنَّ العبارات القرآنيّة : ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ ، تصفُ أيَّ امرأةٍ تَهَبُ نفسَها لِمقامِ النبوّة ، بمعنى أيّ امرأةٍ تُريدُ الارتقاءَ إلى شرفِ الدخولِ في ساحةِ أزواجِ النبيّ ، عَبرَ ابتعادِها عن زينةِ الحياةِ الدنيا وشهواتِها ، وَعَبرَ تطبيقِها للأحكامِ الخاصّةِ بدخولِ هذه الساحةِ ، من عدمِ زواجٍ من الآخرين بعدَ موتِ النبيِّ ﷺ وغير ذلك من الأحكام الخاصّةِ بأزواج النبي .. ولا يتعلّقُ الأمرُ بشخصِ النبيّ ﷺ كرجلٍ يرتبط مع تلك المرأة بعقد نكاحٍ لمجرّدِ أنّها أُنثى ..

.. وهذه المرأةُ بعدَ أنْ تنصاعَ للأحكامِ الخاصّةِ بهذا المقام ، مختارةً اللهَ تعالى ورسولَه والدارَ الآخرة ، مبتعدةً عن زينةِ الحياةِ الدنيا من شهوةٍ للرجال وغيرِ ذلك ، داخلةً هذا المقامَ عبرَ حصولِها على شرفِ الزوجيّة مع النبي .. بعد ذلك .. تكونُ كأُنثى خالصةً لشخصه ﷺ كرجل : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ .. بمعنى أنّها تكونُ كعلاقةٍ زوجيّةٍ بين ذكرٍ وأُنثى مُرتبطةً مع محمّدٍ الشخص ، حيثُ محمّد الشخص الذكر هو المقابل لها كأنثى في هذه العلاقة الزوجيّة .. هكذا نقرأُ من صياغةِ هذه العبارات القرآنيّة ..

.. إذاً علينا أن نُميّزَ في شخصه ﷺ ، بين الجانب الشخصيّ ، وبين جانب النبـــوة ، وبين جانب الرسالة .. وإن لم نُميّز بين هذه الجوانب بشكلٍ سليم لا نستطيعُ أن نُـــدركَ دلالات الكثير من آيات كتابِ الله تعالى ... الرسول ﷺ آمن بما أُنزلَ إليه من ربّه ، يقول تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

.. فهذه العباراتُ القرآنيّةُ تصفُ صفةَ الرسالةِ في ذاته ﷺ .. ولكن لننظر إلى الـــنصِّ التالي في كتابِ الله تعالى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [يونس : ٩٤ – ٩٥]

.. ولننظر إلى النصِّ التالي في كتابِ الله تعالى :

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٣ – ٧٥]

.. هل هذه الآياتُ الكريمةُ تخاطبُهُ ﷺ كرسول ؟!!! ، بالتأكيد لا تُخاطبه كرسول .. إنّما تخاطبه كشخص ، تُخاطبه كبشر ، له هواجسُهُ النفسيّة كأيِّ إنسان .. إذاً .. هناك فارق بين خطاب الله تعالى له ﷺ كشخص ، وبين خطابه له كنبي ، وبين خطابه له كرسول .. فالشخصُ هو فردٌ بشرٌ له طبيعته البشريّة كغيره من البشر ، والنبيُّ هو النقي الطاهر الخالص لله تعالى ، والرسول هو ذلك النبي الحامل لمنهج الله تعالى ، والذي يطلبُ الله تعالى منه إيصالَ المنهج للناس .. ولذلك فصفةُ التشريع تتعلّقُ بصفةِ الرسول حصراً ، ولا تتعلّقُ بصفةِ النبيّ .. والآيةُ الكريمة التالية تُبيّنُ هذه الحقيقة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم : ١]

.. هذه الآيةُ الكريمةُ تؤكّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه .. فاللهُ تعالى هنا يُخاطبُ نبيّه ﷺ كنبي وليس كرسول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ ، ويطلبُ منه كنبيٍّ ألاّ يحرّمَ ما أحلّه الله تعالى له ، بمعنى أنَّ الله تعالى يطلبُ من النبيِّ محمّد أن يلتزمَ بالأحكام التي يحملُها الرسولُ محمّد ..

وهذا أمرٌ طبيعيٌّ فصفةُ الرسالةُ تتعلّقُ بمنهجِ اللهِ تعالى وإيصالِه إلى الناس ، والنبيُّ هـــو أوَّلُ المُطالبين باتّباعِ منهجِ الرسالة ..

.. وصفةُ النبوّةِ دون الرسالةِ في شخصه ﷺ ، نقرؤها أيضاً في قولِه تعالى :

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣]

.. فالذي أذن للمعنيّين بهذه الآية الكريمة هو النبيّ محمّد ، وليس الرسولَ محمّد ، فالإذْنُ المعنيُّ هنا فَعَلَهُ ﷺ باجتهادٍ منه ، وليس كتفسيرٍ للنصِّ القرآني الموحى من السماء .. فليس من المعقول أن يأمرَ الله تعالى رسولَه ﷺ بأنْ يأذنَ لأولئك ، ثمّ بعدَ ذلك يلومه على التزامه بما أمره به ؟ ..

.. والمُخاطَبُ في قولِه تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥]

.. المُخاطَبُ هنا هو الرسولُ ، وليس النبيَّ أو مُحمّداً كبشر مُجرّدٍ عن صفة الرسالة .. كيف يكونُ المخاطبُ هو الشخص أو النبيّ ، وقد رأينا كيفَ أنَّ النبيَّ محمّداً ﷺ هو ذاتُه مُطالبٌ باتّباعِ الرسول محمّد ، وأنّه لم يستطع أن يُشرِّعَ حتى لنفسِه ومع أزواجه ... إذاً .. في أقوالِه ﷺ وأفعاله وحركات حياته كلِّها ، علينا أن نُميّزَ بين ما قامَ به كنبيٍّ أي دون تعلّق بالرسالة ، وبين ما قامَ به كرسول ، أي كتفصيل وتفسيرٍ لكليّات النصّ القرآني ..

.. من هنا نُدركُ عُمْقَ التصوير القرآنيّ بتعلُّق أَمْرِ الطاعةِ بصفةِ الرسالة حصراً .. فأَمْرُ الطاعةِ في كتابِ الله تعالى ، لاتّباع المنهج الذي أنزله اللهُ تعالى على محمّد ﷺ ، يأتي دائماً وأبداً متعلّقاً بصفة الرسالة .. وهذه هي النصوص القرآنيّة المصوِّرةُ لذلك :

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ ﴾ [آل عمران : ٣٢]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة : ٩٢]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [الأنفال : ١]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال : ٢٠]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ ﴾ [النور : ٥٤]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٦]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [محمد : ٣٣]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ ﴾ [المجادلة: ١٣]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ ﴾ [التغابن : ١٢]

.. فالله تعالى لم يقل : (أطيعوا النبيّ) ، أو : (أطيعوا محمّداً) ، أو : (وما آتاكم النبيّ فخذوه) ، أو (وما آتاكم محمّدٌ فخذوه) ، أو : (مَن يُطعِ النبيَّ فقد أطاعَ الله) ، أو (مَن يُطع محمّداً فقد أطاعَ الله) .. وفي ذلك بيانٌ إلهيٌّ عظيم إلى أنَّ ساحةَ الأقوال والأفعال لرسوله ﷺ ، والتي يُطالَبُ بها المؤمنون ، ليست ساحةً تشملُ كلَّ حركةٍ من حركات حياته ﷺ ، فلو كانت تشملُ كلَّ حركةٍ من حركات حياته ، لما أتى أمرُ الطاعة محصوراً بصفةِ الرسالة ..

.. لو كانَ كُلُّ ما قالَه وفعله وأقرّه ﷺ بعد إتيانه النبوّةَ ، لو كان ذلك سنّةً يُطالبُ المؤمنون باتّباعِها ، لكان أمرُ الطاعةِ مُتعلّقاً بساحةٍ أوسع هي صفةُ النبوّةِ ، أي لكان الأمرُ

الإلهيُّ على الشكل : (وَمَا آتَاكُمُ النبيُّ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) .. ولو كانَ كُلُّ ما قالَه وفعله وأقرّه ﷺ منذ بدايةِ حياتِه سنّةً يُطالبُ المؤمنون باتّباعِها ، لكان أمرُ الطاعةِ متعلّقاً بساحةٍ أوسع هي صفةُ الجانب الشخصي الذي يشملُ كلَّ حياتِه منذ ولادته ، أي لكان الأمرُ الإلهيُّ على الشكل : (وَمَا آتَاكُمُ مُحَمَّدٌ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ..

.. بينما في قولِه تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [الحشر : ٧] ، حيثُ صفة الرسالة كما نرى ... وفي حصرِ أمْرِ الطاعة بصفةِ الرسالة .. في كلِّ ذلك ، دليلٌ على أنَّ المُشرِّعَ هو الرسولُ وليس النبيَّ وليس مُحمَّداً ، وأنَّ الأقوال والأفعال التي قامَ بها ﷺ كتفسيرٍ وتبيانٍ لدلالات كتابِ الله تعالى هي السنّةُ الحق ، والتي سمّاها اللهُ تعالى في كتابه الكريم بالحكمة ..

.. ونرى أيضاً أنَّ الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ ﴾ [آل عمران : ٣٢] ، وأنَّ الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ ﴾ [النور : ٥٤] ، وفي هذا بيانٌ أنَّ صفةَ الرسالةِ لها استقلاليّتها عن صفة النبوّة وعن الجانب الشخصي .. فالله تعالى حينما يُخاطِبُ النبيَّ ﷺ بكلمة ﴿ قُلْ ﴾ ، ويأمرُهُ بأنْ يدعو إلى طاعة الرسول : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ ﴾ ، دون الصياغة : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي) ، إنّما يعني ذلك أنّ محمّداً ذاتَه كنبي ، يتحرّكُ ضمن ساحةٍ لها حدودُها المختلفة عن الساحة التي يتحرَّكُ بها كرسول ، فهو ذاتُه كنبيٍّ وكشخصٍ مُطالبٌ باتّباع الرسول ، أي باتّباع الرسالة التي يحملُها من اللهِ سبحانه وتعالى ... وبالتالي لا تُفْهَمُ حقيقةُ السنّةِ الشريفة ، إلاّ بإدراكِ حقيقةِ الحدودِ الفاصلة بين صفتي الرسالة والنبوّة في شخصه ﷺ ..

.. وقد رأينا في المحطة السابقة كيف أنَّ النبيَّ ﷺ في إفتائه للناس ، يأمرُه اللهُ تعالى بالعودة إلى القرآن الكريم .. ففي قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ..... ﴾ [النساء :

١٢٧] ، وفي قوله تعالى : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ..... ﴾ [النساء : ١٧٦] .. رأينا أنَّ خلف العبارتين : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ ، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ ، رأينا ورودَ العبارة القرآنيّة : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ ..... فهذه العبارة : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ ﴾ في سياقها القرآني هذا ، تؤكّدُ أنَّ النبيَّ ﷺ لا يملك صلاحيةَ الإفتاء خارج كتاب الله تعالى ، وتؤكّدُ أنَّ كتابَ الله تعالى هو المرجعُ الأوّل والأخير في كلِّ الأحكام حتى لشخص النبيّ ﷺ ..

.. ورأينا – في المحطّة السابقة – أنَّ كلمة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ في كتاب الله تعالى ، وكذلك العبارة ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، رأينا خلفهما عبارات قرآنيّة لا تُعطي النبيّ ﷺ صلاحيةَ الإجابة خارج النصّ القرآني ... فكلمة ﴿ قُل ﴾ التي ترد في كتاب الله تعالى ، خلف كلمة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ، وخلف العبارة ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ ﴾ ، تؤكّدُ أنَّه ﷺ في إجابته على أسئلة الناس التي تُطرح عليه ، لا يتجاوز النصّ القرآني .. فكلمة ﴿ قُل ﴾ هي أمرٌ إلهيٌّ لنبيّه ﷺ بالإجابة من النصّ القرآني التالي لهذه الكلمة ..

.. وقد رأينا كيف أنَّه ﷺ لا يملك صلاحيةَ التشريع خارج النصّ القرآني حتى لنفسه مع أزواجه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التحريم : ١] ..

.. وفي هذا السياق لا بدّ أن نقفَ عند تفسيرِ قولِه تعالى ..

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ١ – ٥]

.. قولُه تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ يخصُّ نطقَ القرآن الكريم ، وما يتعلّقُ به من تفسيرٍ وتفصيلٍ لكليّاته .. ولا يعني كلَّ ما نطق به ﷺ في حياته .. وبإمكاننا أن نقفَ على هذه الحقيقةِ من خلال تدبّر الصياغةِ اللغويّة لهذه الآياتِ الأولى من سورة النجم ..

.. نرى أنَّ الآيةَ الكريمةَ ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ تردُ أفعالُها بصيغة الماضي ، ونرى أنَّ الآيةَ الكريمةَ ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ترد بصيغة المضارع .. فالنبيُّ ﷺ منذ أن آتاه اللهُ تعالى النبوّةَ اهتدى إلى الطريق ، وهذا ما نقرؤه في العبـــارة : ﴿ مَا ضَلَّ ﴾ ، ومنذ ذلك الحين سار راشداً على هذا الطريق ، وهذا ما نقرؤه في العبارة : ﴿ وَمَا غَوَىٰ ﴾ .. وهذا الرشد على طريقِ الهدايةِ كان ملازماً له طيلةَ فترة النبوّة ، أي (٢٣) عاماً ، وذلك بشكلٍ مُجرّدٍ عن تفاعله مع الأحداث التي كانت تقعُ معه .. ولذلك نرى صـــيغةَ الماضي التي تُشيرُ إلى صفةٍ مُجرّدةٍ عن التفاعل مـــع الأحـــداث ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ ..

.. بينما نُطْقُهُ ﷺ بالقرآن الكريم وبما يتعلّقُ به من تفسيرٍ وتفصيلٍ لكليّاته ومن نقـــل ذلك للناس ، كان يحدثُ في أوقاتٍ محدّدة خلال فترة النبوّة ، وليس مسألةً تتعلّقُ به على كامل مساحة فترة النبوّة ، ولذلك لم يقل تعالى (وما نطق عن الهوى) ، إنّما يقولُ جـــلّ وعلا : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ .. أي حينما كان يتفاعلُ مع كتابِ الله تعالى بإيصالِه للناس وبشرح كليّاتِه ، إنّما كان ذلك دون أيِّ هوىً ..

.. وممّا يؤكّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه ، هو قولُه تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ .. فكلمة ﴿ وَحْى ﴾ ، هي بالصيغة الاسميّة سواءٌ كانت مصدراً أو اسماً ، بينمـــا كلمـــة : ﴿ يُوحَى ﴾ ، نراها بالصيغة الفعليّة ، وهما كلمتان متجاورتان – في كتاب الله تعـــالى –

تعودان إلى جذرٍ لغويٍّ واحد .. فبالتأكيد أنَّ ذلك ليس عبثاً ، وأنَّ ذلك يحملُ حكمةً عظيمةً في تبيانِ حقيقةِ هذا الأمر ..

.. فالوحي الموجود أزلاً في اللوح المحفوظ قبل تنزيله على الرسول ﷺ : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ** ﴾ .. هذا الوحي (الذي هو القرآنُ الكريم) ، يُنَزَّل بمعنى : ﴿ **يُوحَى** ﴾ على الرسول ﷺ ، قرآناً في أزمنة من فترة الرسالة .. وفي هذا دليلٌ آخر أنَّ الأمرَ يتعلّقُ بالقرآن الكريم حصراً ..

.. ولو تمَّ سحبُ الصورة القرآنيّة : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ ، على كُلِّ ما نطق به محمّد ﷺ ، لشمل ذلك حياتَه قبل الرسالة ، لأنّه لا يُوجد في هذه الصورة القرآنيّة ما يُشير إلى أنّ هذا النطقَ محصورٌ بعد مجيء الرسالة ، وبالتالي لوصلنا إلى نتائجَ غيرِ سليمة .. فنحن نعلم أنَّ الوحي أتى النبيَّ ﷺ بعد أن أصبح عمره أربعين سنة ، وليس من أوّل يومٍ في حياته ..

.. كيف يقولون إنَّ قولَه تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ ، شاملٌ لكلِّ ما نطق به ﷺ ، في الوقت الذي يؤمنون فيه بصحّةِ الحديث التالي ، الذي يُفترى فيه على النبيِّ ﷺ بأنَّه نطق آمراً بحرق بعض الناس بالنار ، ثمَّ تراجع عن نطقه هذا بعدَ أن اكتشف – حسب منطق هذه الرواية الموضوعة – أنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إِلا اللَّهُ ، فنطق آمراً بقتلهم بدلَ حرقهم بالنار ؟!!! ..

البخاري (٢٧٩٣) :

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا اللَّيثُ عنْ بُكَيرٍ عَنْ سُلَيمانَ بْنِ يسَارٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْثٍ فَقَالَ إِنْ وَجَدْتُمْ فُلاناً وَفُلاناً فَأَحْرِقُوهُمَا بِالنَّارِ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَرَدْنَا الْخُرُوجَ إِنِّي أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلاناً وَفُلاناً وَإِنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إِلا اللَّهُ فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا

.. لّما كانت النار لا يُعذِّب بها إلاّ اللهُ تعالى ، فلماذا أمرهم ﷺ بأن يحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار .. فهل نسي ﷺ هذه الحقيقة حينما بعث أبا هريرة في هذا البَعْث ، ثمَّ تذكّرها حينما أراد أبو هريرة الخروج لهذا البعث ؟!!! .. أم أنَّ الله تعالى كان يسمح للناس أن يُعذِّبوا بعضهم في النار حينما بعثَ النبيُّ ﷺ أبا هريرة بهذا البَعْث ، ثمَّ عدل عن ذلك حينما أراد أبو هريرة الخروج لهذا البَعْث ؟!!! .. أم أنَّ النبيَّ ﷺ كان لا يعلم أنَّه لا يُعذِّب في النار إلاَّ اللهُ تعالى حينما بعث أبا هريرة في هذا البَعْث ، ثمّ علم ذلك حينما أراد أبو هريرة الخروج لهذا البَعْث ؟!!! ..

.. ولو فرضنا جدلاً أنَّ حرقَ الناس لبعضهم بالنار لا يتناقض مع القول بأنَّه لا يُعذِّب في النار إلاَّ اللهُ تعالى ، فأيُّ معنىً سيبقى لهذه المقولة ، بأنَّه لا يُعذِّب في النار إلاَّ اللهُ سبحانه وتعالى ؟!!! ..

.. وكيف يكون ما نطق به ﷺ آمراً بحرق فلانٍ وفلانٍ بالنار ، والمناقض لنطقه الذي يأمرُ به بالعدول عن ذلك إلى قتلهما ، كيف يكون هذان النطقان المتناقضان في مسألة الحرق في النار ، كيف يكونان في الوقت ذاتِه وحياً يُوحى من الله تعالى ؟!!! ..

.. طبعاً الرواية موضوعة من أساسها ، شأنها بذلك شأن الكثير من الروايات الموضوعة في الصحاح وغير الصحاح ، كما سنرى لاحقاً .. ولكنَّ شاهدَنا منها هو القول لمن يؤمن بها : كيف تؤمن بها وتقول في الوقت ذاته إنَّ كلّ ما نطق به ﷺ هو وحي يُوحى ؟!!! ..

.. ثمَّ كيف يكون قولُهُ تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ ، شاملاً لكلِّ ما نطق به ﷺ ، والله تعالى يقول : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣] ؟!!! ..

.. إنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ صريحةٌ بأنَّ النبيَّ ﷺ كنبيّ وليس كرسول ، ليس كُلُّ ما ينطقُ به وحياً يُوحى من السماء ، فإذْنُ النبيّ ﷺ لبعضِ رجال قومِه هو قوْلٌ نطق به ، ونرى أنَّ

اللهُ تعالى يُعاتبه على ذلك ، وبأنَّه عليه قبل إعطاءِ مثلِ هذا الإذن أنْ يتبيّنَ الذين صـــدقوا ويعلمَ الكاذبين ... فكيف يُعاتب اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ على وحيٍ يُوحيه إليه ؟!!! ..

.. القرآنُ الكريمُ يبيّنُ لنا أنَّ النبيَّ ﷺ لا يملك صلاحيةَ التشريع خارج النصّ القرآني ، ولا حتى لنفسه مع أزواجه ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التحريم : ١]

.. والآيةُ الكريمةُ التاليةُ تُؤكِّدُ أنَّه ﷺ إنّما يتّبعُ ما يُوحى إليه ، ولا يستطيعُ التشـــريعَ خارجَ دلالاتِ كتابِ اللهِ تعالى ..

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [يونس : ١٥]

.. موضوعُ هذه الآيةِ الكريمةِ هو القرآنُ الكريم .. وبالتالي فالعبارةُ القرآنيّـــةُ : ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ ، صريحةٌ في أنَّ الوحيَ المعنيَّ وما يتّبعه ﷺ ولا يتّبع غيرَه ، هو القرآنُ الكريم وليس أيَّ أمرٍ آخر ..

.. من هنا نرى أنَّ التعريفَ الموروثَ للسنّة ، بأنّها كلُّ ما فعل ﷺ أو قال أو أقر ، هو تعريفٌ ليس صحيحاً على الإطلاق ، ولو فرضنا جدلاً أنّه صحيح لكانت العبارة القرآنيّة : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر : ٧] .. لكانت : (وما آتاكم النبيّ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .. ولو فرضنا جدلاً أنَّ التعريفَ الموروثَ للسنّةِ صحيحٌ لكانت العبارة القرآنيّة : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء : ٨٠] ، لكانت : (مَنْ يُطِعِ النبيَّ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ..

.. إذاً .. حَصْرُ أمرِ الطاعةِ بصفةِ الرسالة ، يُؤكّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه بأنّ السنّةَ الشريفة لا تتجاوزُ استنباطَ الرسولِ ﷺ للدلالات الكامنة في أعماقِ النصّ القرآني ، مثل جزئيّات شعائر العبادة .. وممّا يؤكّدُ ذلك أنّ اللهَ تعالى حينما أمرَ محمّداً ﷺ بتبليغ ما أُنزل إليه ، إنّما أمره كونَه رسولاً ، أي كونَه حاملاً للقرآن الكريم ، وبالتالي يُخاطبه – في هذا الأمر – بصيغة الرسالة حصراً ..

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧]

.. ولو نظرنا في كتابِ اللهِ تعالى لرأينا أنّ عبارةَ : (سنّة النبي) أو : (سنّة الرسول) ، لا ترد ولا مرّة في كتاب الله تعالى .. وما ورد هو كلمة : ﴿ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ ..... وكلمةُ ﴿ ٱلۡحِكۡمَةَ ﴾ نراها مُجرّدةً عن الجانب الشخصي للنبيِّ ﷺ ، بمعنى لم ترد بصيغة : (حكمة النبي) ، أو بصيغة : (حكمة الرسول) ...

.. الحكمةُ مسألةٌ مُتحرِّكةٌ يُؤتيها اللهُ تعالى لمن يشاء في كلِّ زمانٍ ومكان ..

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩]

.. والحكمةُ هي منهجٌ تدبّريٌّ ووسيلة للدعوة ، وهذا ما نراه جليّاً في قولِه تعالى ..

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥]

.. ولذلك فمجيءُ عيسى عليه السلام بالحكمة ، هو مجيئُهُ بمنهجٍ تدبّريٍّ يُبيّنُ فيه بعضَ ما اُختُلِفَ فيه ..

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الزخرف : ٦٣]

.. والحكمةُ كما يُصوِّرُها كتابُ الله تعالى ، يُعلِّمُها ﷺ للأمّةِ كما يُعلّمُهم القرآنَ الكريم .. بمعنى أنّه يُعلِّمُهم الحكمةَ كرسولٍ حاملٍ لمنهجِ الله تعالى القرآن الكريم .. فليس من العبث أن يتعلّقَ تعليمُ الحكمةِ بصفةِ الرسالةِ وذلك اقتراناً بالكتاب ..

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩]

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١]

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢]

.. إنّنا نرى أنَّ تعليمَ الحكمةِ مُتعلِّقٌ بصفةِ الرسالةِ حصراً .. ونرى أنَّ تعليمَ الحكمةِ لا يأتي إلاّ متعلّقاً بتعليم الكتاب .. فتعليمُ الحكمةِ للمؤمنين من قِبَلِهِ ﷺ ، هو تعليمُها لهم كرسولٍ ، وبشكلٍ لا ينفكُّ – أبداً – عن الكتاب الذي هو القرآنُ الكريم ..

.. فليس من العبث ورود الحكمة في هذه النصوص متعلّقةً بالكتاب في ذات التعليم ، فهذه العبارات لم ترد على الشكل (يعلمهم الكتاب ويعلمهم الحكمة) ، إنما نراها : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ ، فتعليم الحكمة ليس منفكّاً عن تعليم الكتاب ، وكلُّ ذلك ليس منفكّاً عن صفة الرسالة كما نرى ..

.. وحتّى إنزال الحكمة على النبيّ ﷺ وعلى المؤمنين ، لم ينفكَّ هذا الإنـــزالُ عـــن الكتاب الذي هو القرآنُ الكريم ..

﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣١]

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾ [النساء : ١١٣]

.. وهنا أيضاً نرى أنَّ إنزال الحكمة ليس منفكّاً وليس مستقلاً عن إنزال الكتـــاب ، فالحكمة والكتاب نراهما يتعلّقان بإنزال واحد ، فالكلمتان [[﴿ أَنزَلَ ﴾ ،، ﴿ وَأَنزَلَ ﴾]] تردان في كلِّ نصٍّ مرّةً واحدة للكتاب والحكمة معاً ..

.. وفي النصِّ التالي نرى أيضاً أنَّ الحكمة لا تنفكّ عن آيات الله تعـــالى في مســـألة التلاوة ..

﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤]

فالله تعالى لم يكرر كلمة (**من**) بين آيات الله والحكمة : (واذكرن مـــا يُتلـــى في بيوتكن من آيات الله **ومن** الحكمة) .. إنما يقول جلَّ وعلا ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ ﴾ ، فالحكمة لا تنفك عن آيـــات الله تعـــالى في مسألة التلاوة المذكورة كما نرى ..

.. وحرف العطف بين الكتاب (القرآن الكريم) والحكمة ، وبين آيات الله تعالى والحكمة ، لا يعني أبداً عطفاً لِوَحْيين مستقلّين أو نصّين مستقلّين لكلٍّ منهما حدوده المميّزة عن الوحي الآخر أو عن النصِّ الآخر ، كما يريد أن يلبّس بعض عابدي أصنام

التاريخ .. أبداً .. وشأن حرف العطف هذا هو شأن حرف العطف بين كلمة الكتاب والقرآن في الآيتين التاليتين ..

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾ [الحجر : ١]

﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ﴾ [النمل : ١]

فهل هذا الحرف يفيد أنَّ القرآن نصٌّ مختلفٌ عن الكتاب ؟!!! .. أبداً .. إنَّ الكتاب هي صفة من صفات القرآن ، والعطف لا يفيد الاستقلال والتمايز ..

.. وحرف العطف هذا بين آيات الله والحكمة وبين الكتاب والحكمة ، شبيهٌ بحرف العطف بين العبارة ﴿ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي ﴾ وبين العبارة ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧] .. وسنبيّن – إن شاء الله تعالى – هذه المسألة في المحطّة القادمة ..

.. إنَّ الحكمة محتواة في كتاب الله تعالى ، وعطفها على الكتاب وعلى آيات الله تعالى هو نتيجة كون الكتاب (وكون آيات الله تعالى) ساحةَ الاستنباط والتدبّر بالنسبة للحكمة ، فالحكمة (السنّة) ليس وحياً مستقلاً عن وحي الكتاب (القرآن) ، وليست نصّاً مستقلاً عن نصوص الكتاب (القرآن) .. وهذا ما نراه جليّاً في قوله تعالى ..

﴿ وَلَآ تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ

إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٣١ – ٤١]

.. إنَّ كلمة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ ﴾ تتعلّق بالأحكام القرآنيّة في الآيات السابقة مباشرةً لهذه الكلمة (من الآية – ٣١ – حتى هذه الكلمة) ...

.. وهذه الحقيقة تتجلّى معنى في قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٣١] ، فقوله تعالى ﴿ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ ﴾ بصيغة المفرد ﴿ بِهِۦ ۚ ﴾ وليس المثنى (بهما) ، يؤكّد أنَّ ﴿ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ هما في النهاية أمرٌ واحد ، وليسا أمرين مستقلّين لكلٍّ منهما نصّه المستقل ، كما يطبّل ويزمّر عابدو أصنام التاريخ ..... إذاً الحكمة الموحاة (السنّة) ليست نصّاً خارج دفتي كتاب الله تعالى ، وليست وحياً مستقلاً عن وحي كتاب الله تعالى ..

.. وهكذا .. فالحكمة التي أنزلها الله تعالى على النبيِّ ﷺ ، لم تنفكّ عن الكتاب كما بيّنا ، وهي محتواة في النصِّ القرآني ، وليست نصّاً مستقلاً عنه ... نستنتجُ من كُلِّ ما سبق ، أنَّ الحكمةَ التي سُميّت تاريخيّاً بالسنّة ، هي تبيانُه ﷺ لكليّات النصِّ القرآني من تفصيلٍ وتفسير ، وأنّها ليست مُستقلّةً عن تدبّرِ كتابِ الله تعالى ، كما يُفترى على منهج الله تعالى ..

وكنّا قد رأينا في المحطَّة السابقة كيف أنَّ وحيَ الله تعالى لنبيّه ﷺ إنّما كان عبر القرآن الكريم وما يتعلّق به ، وأنَّ القول بوحي آخر خاص بالسنّة الشريفة مستقل عن وحي القرآن الكريم ، هو قولٌ فاسد ينقضه كتاب الله تعالى جملةً وتفصيلاً ..

.. وحكمةُ الله تعالى تكمن خلفَ كلِّ ذلك .. فقد رأينا كيف تدرّجت الرسالاتُ السماويّةُ وارتقت إلى الرسالةِ الخاتمة حيثُ تركّز المنهجُ وتركّزت المعجزةُ في النصّ القرآني .. فمهمّتُه ﷺ هي تبليغُ ما نزّله الله تعالى للناس ، وتبيينُ بعضِ كليّات النصِّ القرآني كشعائر العبادات .. وهذا ما نقرؤه بشكلٍ جليٍّ في قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[النحل : ٤٤]

.. فالسنّةُ الشريفةُ ، التي هي الحكمة ، لا تتعدّى تبيينَ بعضِ كليّاتِ النصِّ القرآني ، ولا تُكملُ النصَّ القرآنيّ كما يقول بعضُ التائهين .. فالنصُّ القرآنيُّ ليس ناقصاً حتى تُكملُهُ السنّةُ الشريفة .. فنحنُ نُصدِّقُ الله تعالى حينما يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩]

.. إذاً أقوالُهُ ﷺ وأفعالُهُ وما كان يقرّه ويعملُه ، كُلُّ ذلك ينقسم إلى قسمين :

.. هناك ما قامَ به ﷺ كتفسيرٍ وتفصيلٍ لكليّات النصّ القرآني بعد نزول ذلك النص ، وهذا هو السنّةُ الحق .. وهذا ما تُطالبُ الأمّةُ باتّباعه إلى قيام الساعة .. وهذا ما سمّاه الله تعالى بالحكمة التي أمرَ رسولَه ﷺ بأن يُعلِّمَها للمؤمنين ..

.. وهناك ما قام به ﷺ كاجتهادٍ بشريّ أو مجاراةٍ لأعراف اجتماعيّةٍ كانت سائدة أو كموافقة لما كان يعمله أهلُ الكتاب .. وذلك ريثما يتزلُ النصُّ القرآنيُّ الخاصُّ بتلك الأعمال .. وفي روايات الأحاديث ذاتها ما يؤكّدُ ذلك ..

البخاري (٥٤٦٢) :

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ حَدَّثَنَا ابْنُ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ

الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ أَشْعَارَهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ فَسَدَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ

مسلم (٤٣٠٧) :

حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ أَبِي مُزَاحِمٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ مَنْصُورٌ حَدَّثَنَا و قَالَ ابْنُ جَعْفَرٍ أَخْبَرَنَا إِبْرَاهِيمُ يَعْنِيَانِ ابْنَ سَعْدٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَسْدِلُونَ أَشْعَارَهُمْ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ **وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ** فَسَدَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ فَرَقَ بَعْدُ و حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ

مسند أحمد (٢٧٩٠) :

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ عُمَرَ حَدَّثَنَا يُونُسُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَسْدِلُ شَعَرَهُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْرُقُونَ رُءُوسَهُمْ **وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ** فَفَرَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ

.. فتفاعله ﷺ فيما تعرَّض له من أمورٍ وأحداث قبل نزول النصّ القرآني المناسب ، كان إمّا موافقة أهل الكتاب ، أو مجاراة الأحكام السائدة ، أو الاجتهاد كبشر بعيداً عن منهج الرسالة ، وذلك حتى يترلَ الحكمُ القرآنيُّ الخاصُّ بتلك الأعمال ..

ونحن نعلم أنَّ النبيَّ ﷺ اتَّجه في صلاتِه نحو بيت المقدس شهوراً قبل نزول النصِّ القرآني الذي يأمره بالتوجّه نحو المسجد الحرام ..

﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٤٤]

.. وبناءً على تعريفِهم للسنّة بأنّها كُلُّ ما فعله ﷺ أو قاله أو أقرّه .. هل يكون توجّهُهُ ﷺ في الصلاة نحو بيت المقدس سنّةً على الأمّةِ اتّباعُها إلى قيام الساعة ؟!!! .. أم أنَّ هذه التعاريف لا علاقةَ لها بدلالات الجمل التي صيغت بها ؟!!! .. أليس توجّهه ﷺ في الصلاة نحو بيت المقدس ، هو عملٌ فَعَلَهُ ﷺ ؟!!! ..

.. وممّا يؤكّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه – في هذه المسألة – هو قولُهُ تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴾

... فالله تعالى لم يقل : (وما جعلنا لك القبلة التي كنت عليها) ، أو : (وما جعلنا القبلة التي أمرناك بها) ، حتى يُقال بأنَّ الاتّجاه إلى بيت المقدس كان بأمرٍ من الله تعالى .. هذا بالإضافة إلى أنّه يُوجَدُ نصٌّ قرآنيٌّ يأمر بالاتّجاه إلى بيت المقدس ..

ولو كان الاتّجاه إلى بيت المقدس بأمرٍ من الله تعالى لرضي به الرسول ﷺ ، فالرسول ﷺ لم يكن راضياً عن توجّهه نحو بيت المقدس ، بدليل قولِه تعالى : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ ﴾ ، فلو كان أمرُ التوجّه إلى بيتِ المقدس من الله تعالى لرضيه ﷺ .. وكلُّ ذلك يُؤكِّدُ أنّه علينا أنْ نُميّزَ في أفعاله ﷺ وأقوالِه ، بين ما قام به كرسولٍ تفصيلاً لكلّيات النصِّ القرآني ، وبين ما قامَ به كنبي ريثما يترلُ النصُّ القرآني الخاصُّ بالعمل الذي تمَّ القيامُ به ..

.. وممّا يؤكِّدُ صحّةَ ما نذهب إليه هو الصياغة اللغويّة لقولِه تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴾ ،

فالضمير في كلمة ﴿ كُنتَ ﴾ في العبارة ﴿ ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾ لا يعود إلى محمّدٍ الرسول إنّما يعود إلى محمّدٍ النبي ، فالله تعالى لم يقل (وما جعلنا القبلة التي كان الرسول عليها) ، وهذا يؤكِّدُ أنَّ اتّباعَ القبلة الأولى كان اجتهاداً منه ﷺ كموافقة لأهل الكتاب ، ريثما يترل الأمر الإلهي بذلك ..

بينما في العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ نرى كلمة ﴿ ٱلرَّسُولَ ﴾ ، فالله تعالى لم يقل (إلاّ لنعلم من يتّبعك) ، إنّما يقول ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ، فكلمة ﴿ ٱلرَّسُولَ ﴾ تدلُّ على الأمر الإلهي النازل من السماء بنصٍّ صريحٍ في كتاب الله تعالى وهو الاتّجاه نحو المسجد الحرام ..

إذاً .. الاتّجاه نحو القبلة الأولى هو عملٌ فعله ﷺ كنبيٍّ وليس كرسول ، أي كاجتهادٍ منه وليس بوحيٍ من السماء ، ولذلك رأينا الصياغة القرآنيّة تتعلّق به ﷺ كشخص وليس كرسول : ﴿ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ ﴾.. بينما الاتّجاه نحو المسجد الحرام هو عملٌ فعله ﷺ كرسول ، ولذلك رأينا الصياغة القرآنيّة تتعلّق به ﷺ كرسول : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ..

وإن قال قائل : ما دام الاتّجاه نحو المسجد الأقصى ليس وحياً من السماء ، والنبيُّ ﷺ يريد الاتّجاه نحو المسجد الحرام ، فلماذا لم يتّجه ﷺ نحو المسجد الحرام منذ البداية بدلاً من اتّجاهه نحو المسجد الأقصى ؟ .. نقول : النبيُّ ﷺ يُرجّح ما عليه أهل الكتاب على ما يريده هو في المسائل التي لم يترل بها نصٌّ قرآنيٌّ ، وذلك ريثما يترل النصُّ القرآني المناسب والحامل لأحكام تلك المسائل ، وذلك كون ما عليه أهل الكتاب في هذه المسائل التي رجّحها ﷺ على مراده ، هو في النهاية أمرٌ من السماء .. وإلاّ كيف بنا أن نفهم العبارات التي رأيناها : [[قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يُؤْمَرْ فِيهِ]] ،، [[وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ مُوَافَقَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِيمَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِ]] ، فهذه العبارات تبيّن مبدأً سار عليه النبيُّ ﷺ كمنهج ألزم نفسه به ، وليست محصورة – كما يريد بعضهم – على إسدال الشعر وفرق الرأس ..

.. ولنسأل أنفسَنا السؤال التالي : هل حالاتُ الجمع بين الأختين بوجود النبيّ ﷺ وبعلمه بين بعض أفراد الجيل الأوّل ، وذلك قبل نزول النصِّ القرآني الذي يُحرِّمُ ذلك ..

هل هو سُنّة يجبُ اتّباعها ؟!!! .. أم أنّه حُكمٌ لا علاقةَ له بالدين ، وأنَّ إقرارَه ﷺ لـــذلك كان نتيجةَ عدمِ نزول النصِّ القرآني الذي يُحرِّمُ ذلك ؟!!! ..

.. وهل جَمْعُ بعضِ أفرادِ الجيل أكثرَ من أربع نساء في وقتٍ واحد ، قبل نزول قولِه تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء : ٣] ، بوجود النبيّ ﷺ وبعلمه ، هل هو سُنّة يجبُ اتّباعها ؟!!! .. أم أنّه حُكمٌ لا علاقةَ له بالدين ، وأنَّ إقرارَه ﷺ لذلك كان نتيجةَ عدمِ نزول النصِّ القرآني الذي يُحرِّمُ ذلك ؟!!! ..

.. وهل نَكْحُ امرأة الأب قبل نزول قولِه تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ [النساء : ٢٢] ، بوجود النبيّ ﷺ وبعلمه ، هل هو سُنّة يجبُ اتّباعها ؟ .. أم أنّه حُكمٌ لا علاقةَ له بالدين ، وأنَّ إقرارَه ﷺ كان نتيجةَ عدمِ نزول النصِّ القرآني الذي يُحرِّمُ ذلك ؟ ..

.. فهذه الأعمالُ – وغيرُها الكثير – حَصَلَتْ بِعِلْمِ النبيّ ﷺ وبوجودِه ، ولكنَّ ذلك لم يكن متعلّقاً بمنج الرسالة (القرآن الكريم) ، فهي أعمالٌ لا علاقةَ لها بالسنّة الشـــريفة ..... ولربّما في الحديث التالي ما يُبيّنُ ذلك ..

مسلم (٤٣٥٦) :

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّقَفِيُّ وَأَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ وَهَذَا حَدِيثُ قُتَيْبَةَ قَالَا حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ فَقَالَ مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ فَقَالُوا يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا قَالَ فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ **إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**

.. فالعبارة : ((**إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**)) تُبيّنُ لمن يريدُ فهم الحقيقة ، أنَّه ليس كـلُّ ما عمله وقاله وأقرّه ﷺ سنّةً من المنهج ..

.. وفي الأحاديث التالية بيانٌ لمن يُريدُ معرفةَ الحقيقة ..

البخاري (٦٤٥٢) :

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أُمِّ سَلَمَةَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ **عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً فَلَا يَأْخُذْ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ**

مسلم (٤٣٥٨) :

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَمْرٌو النَّاقِدُ كِلَاهُمَا عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ أَبُو بَكْرٍ حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قَالَ فَخَرَجَ شِيصاً فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ **أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**

سنن ابن ماجة (٢٤٦٢) :

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَهِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ أَصْوَاتاً فَقَالَ مَا هَذَا الصَّوْتُ قَالُوا النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهَا فَقَالَ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ فَلَمْ يُؤَبِّرُوا عَامَئِذٍ فَصَارَ شِيصاً **فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنْ كَانَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنُكُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ**

أحمد (١٢٠٨٦) :

حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ أَصْوَاتًا فَقَالَ مَا هَذَا قَالُوا يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ فَقَالَ لَوْ تَرَكُوهُ فَلَمْ يُلَقِّحُوهُ لَصَلُحَ فَتَرَكُوهُ فَلَمْ يُلَقِّحُوهُ فَخَرَجَ شِيصًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكُمْ قَالُوا تَرَكُوهُ لِمَا قُلْتَ **فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ بِهِ فَإِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ**

.. إذاً .. النبيُّ ﷺ كان يقوم بالكثير من الأعمال ليس بوحيٍ من السماء ، وأعمالُه هذه تحتملُ الصوابَ وغيرَ الصواب ، وكنّا قد رأينا في قولِه تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم : ٣ – ٤] ، رأينا أنَّ الوحي الذي يُوحى ولا ينطق به ﷺ عن الهوى ، هو النصُّ القرآنيُّ فقط ، وما يتعلّقُ به من تفسيرٍ وتفصيلٍ لكليّاتِه .. ولذلك .. فما يُذَر من الرماد في الأعين بأنَّ قوله تعالى ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ** ﴾ ، يشمل كلَّ ما نطق ﷺ به ، هو قولٌ يردُّه كتاب الله تعالى والكثير من الروايات ذاتها .. فالنبيُّ ﷺ بجانبه البشري كان يسهو وينسى شأنه بذلك شأنُ غيرِه من البشر .. لننظر في الحديث التالي ..

البخاري (٣٨٦) :

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ قَالَ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَا أَدْرِي زَادَ أَوْ نَقَصَ فَلَمَّا سَلَّمَ قِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ قَالَ وَمَا ذَاكَ قَالُوا صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا فَثَنَى رِجْلَيْهِ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ فَلَمَّا أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ قَالَ إِنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ لَنَبَّأْتُكُمْ بِهِ وَلَكِنْ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي** وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيُسَلِّمْ ثُمَّ يَسْجُدُ سَجْدَتَيْنِ

.. ونحن عندما نورد هذه الروايات التي توافق ما نذهب إليه إنّما نقوم بذلك لـــيس لأنَّنا نعتبرها مقدّماتٍ يقينيّة ، فكلُّ الروايات ودون أيِّ استثناء هي ظنيّة الثبوت ولا ترتقي

إلى مستوى اليقين ، إنّما نوردها لأنَّها تتوافق مع الأدلّة القرآنيّة التي نقـــدِّمها ، فـــالقرآن الكريم واضحٌ وجليٌّ في ذلك ..

.. إذاً .. حياتُه ﷺ والتي امتدّت (٦٣) عاماً ، فيها ثلاثُ صفات ، لكـــلٍّ منـــها حدودُها التي تُميّزها عن غيرها ..

.. فكلمةُ محمّد تصفُ حياتَه ﷺ من ميلاده إلى موته ، فاسمه هذا لم يتغيّر ، وطبيعته البشريّة والشخصيّة لازمته على كامل محور حياته ، أي (٦٣) عاماً ..

.. وكلمةُ النبي تصفه ﷺ كفردٍ خالصٍ لله تعالى منذ أن أتته الرسالة أي لازمته (٢٣) عاماً ، منذ بعثه ﷺ حتى وفاته ، أي منذ أن أصبحَ عُمُرُهُ (٤٠) عاماً ، إلى وفاته ..

.. وكلمة الرسول تصفُ في ذاتِه وأفعاله وأقواله كُلَّ ما تعلّقَ بمنهجِ الرسالة (القرآن الكريم) من تبيانٍ وتفصيل لكليّاته ، أي تصفُ جُزءاً من أعماله ، منذ أصبح عُمُرُه (٤٠) عاماً إلى وفاته ، لتكون الأعمال الأخرى – في هذه الفترة – التي عملها قبل نزول النصّ القرآني الخاص بها ، متعلّقةً بكونه نبيّاً ، وليس بكونه رسولاً ..

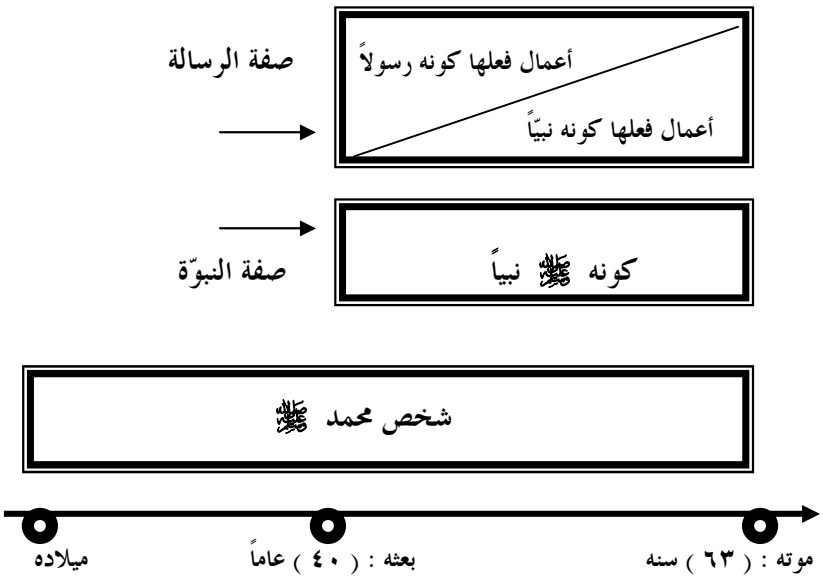

.. من هنا نُدركُ عُمقَ الحكمة الإلهيّة في تعلّق أمرِ الطاعة بصفةِ الرســـالةِ حصـــراً ، وندركُ فسادَ التعريف الموروث للسنّةِ الشريفة بأنّها كلُّ ما قال ﷺ أو فعـــل أو أقـــر ..

وندركُ – أيضاً – عظمةَ الحكمة في كون الرسالةِ الخاتمةِ متركّزةً في ذاتِ النصِّ القـــرآني كمنهجٍ وكمعجزةٍ في الوقتِ ذاتِه ..

.. لذلك فصفةُ الرسالةِ مُجرّدةٌ عن التاريخ ، ومستمرّةٌ في كلِّ زمانٍ ومكان ، لأنّها تتعلّقُ بالنصِّ القرآنيِّ الصالحِ لكلِّ زمانٍ ومكان ، والذي تُستنبطُ منه الأحكام في كلِّ زمانٍ ومكان .. فرسول الله تعالى كاستنباطٍ لدلالات النصِّ القرآنيّ وتفسيرٍ لكليّاتِه وإعطاءِ كلِّ جيلٍ ما يُناسبُ حلَّ مشكلاته الحضاريّة ، لم يمت ، ويبقى فينا إلى قيام الساعة .. هـــذه الحقيقةُ يُدركُها من يملك حداً أدنى من الإدراك ، وذلك في قولِه تعالى ..

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

.. إنّنا نرى في هذه الآيةِ الكريمة أنَّ العبارةَ القرآنيّةَ : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ ، تُخاطبُ المعنيّينَ بها في كُلِّ زمانٍ ومكان ، وليست محصورةً بأفراد الجيل الأوّل .. وكذلك الأمـــر بالنسبة لدلالاتِ العبارة القرآنيّة ﴿ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ، فآياتُ اللهِ تعـــالى تُتلى على المؤمنين في كُلِّ زمانٍ ومكان ، وليست محصورةً بأفراد الجيل الأوّل .. وكذلك الأمرُ بالنسبة لدلالات العبـــارة القرآنيّـــة : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ... وكذلك الأمْرُ – أيضاً – بالنسبة لدلالاتِ العبارة : ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾ .. فصفةُ الرسالةِ المعنيّةِ موجودةٌ في كُلِّ زمانٍ ومكان ، ومن الجحود بمنهجِ اللهِ تعـــالى حصرُها بزمنِ الجيلِ الأوّل ، وبأفرادِ الجيل الأوّل .. فكُلُّ جيلٍ إلى قيامِ الساعة فيه رسولُ الله تعالى ، بمعنى فيه منهجُ الله تعالى (القرآن الكريم) وما يتعلّق به من تفصـــيل وتبـــيين لكليّاتِه ، و لم تنته هذه الصفة بموت شخصِ محمّد ﷺ ..

.. وهذا المعنى المجرَّدُ لصفةِ الرسالة ، نستطيعُ قراءتَه – أيضاً – من الآيةِ الكريمة :

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] ..

.. لا شكَّ أنَّ خطابَ الله تعالى : ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ موجّهٌ لكلِّ إنسانٍ في كلِّ زمانٍ ومكان ..... وحتى لو فرضنا – جدلاً – منهجيّةَ التفاسير الموروثة ، بأنَّ هذا الخطابَ موجّهٌ فقط لشخصِ محمّدٍ ﷺ في إطار الزمن الذي عاشه ، وأنَّ دلالاتِها لا تخرجُ عن هذا الإطار .. لو فرضنا هذه المنهجيّةَ جدلاً .. كيف بنا – وفقَ هذا الفهم المغلوط – أنْ نفهمَ العبارةَ القرآنيّة : ﴿ مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ ؟!!! .. فهل سيخرجُ الرسلُ السابقون من قبورهم ليسألهم ﷺ ؟!!! ... ألا نرى أنَّ المسألةَ مسألةُ رسالاتٍ موجودةٍ من خلالِ أحكامِها ونصوصِها التي يستطيعُ الإنسانُ – في كلِّ زمانٍ ومكان – النظرَ إليها ، والتعرّفَ على حقيقتِها ؟ ..

.. أمّا ما ذهبت إليه بعضُ تفاسيرنا الموروثة ، بأنَّ هذه الآية الكريمة تتعلّقُ بحادثة الإسراء والمعراج ، وبمقابلة الرسول ﷺ للرسل السابقين في تلك الحادثة .. فهذا القولُ لا يُوجَدُ عليه أيُّ دليلٍ في سياقِ هذا النصّ ، وهو محاولةٌ – غيرُ مُوفَّقة – للهروب من رؤيةِ الدلالات المجرّدة عن التاريخ التي تحملُها هذه الآيةُ الكريمة ..

.. إذاً صفةُ الرسالةِ مُجرّدةٌ عن التاريخ ، وَحَصْرُها في إطارٍ تاريخيٍّ وصلَ إلينا بأدواتٍ تاريخيّةٍ – كما سنرى إن شاء الله تعالى – هو خروجٌ على جَوْهرِ المنهج ، واستبدالٌ لهذا المنهج بتاريخٍ لا يمكنه أن يرتقي إلى مستوى المنهج الصالح لكلّ زمانٍ ومكان ..

.. ولذلك نرى في كتابِ الله تعالى أنَّ صفةَ الرسالة كونَها تعني الاستنباطَ من كتاب الله تعالى ، وتبيينَ أحكامِه خلال التاريخ ، نراها تختلفُ عن صفةِ النبوّة ، فمحمّدٌ كشخصٍ نبيٍّ هو خاتَمُ النبيّين ، وهو كشخص سيموت ، وهذا يختلفُ عن صفة الرسالة .. وهذا ما نقرأُه في قولِه تعالى ..

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

.. ففي هذه الآية الكريمة نرى الصفات الثلاث لشخصه ﷺ ، فمحمّدٌ الشخص ليس أباً لأحدٍ من رجالنا ، ومحمّدٌ النبيّ هو خاتَمُ النبيّين ، فلن يُخْلَقَ بعدَه نبيٌّ نقيٌّ طاهرٌ مائة بالمائة مثله ، فصفة النبوّةِ خُتمت عنده .. بينما صفةُ الرسالة بما تعنيه من حملٍ لِمنهجِ الله تعالى وإبلاغِه واستنباطِ أحكامه ودلالاتِه ، فهي صفةٌ لا تنتهي ما دام كتابُ الله تعالى (القرآنُ الكريم) بين أيدي البشر .. صحيحٌ أنّهُ لن يُوجدَ رسولٌ بقيمة الرسول محمّد ﷺ ، إلاّ أنَّ هذه الصفةَ لا تنتهي إلى قيام الساعة ، ولذلك نرى هذه الصفةَ في هذه الآية الكريمة لا تُختمُ كما خُتمت صفةُ النبوّة .. ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ..

.. ولو عدنا إلى روايات الأحاديث ذاتِها لوجدنا فيها من يبحث في مسألةِ الرسالة ، وذلك من خلالِ البحثِ عن تاريخيّة أفعالِ النبيِّ وأقوالِه ليعرف هل هي من السنّة التي قام بها ﷺ بعد نزول النصِّ القرآني المناسب ، أم هي من الأعراف الاجتماعيّة التي قام بها كاجتهادٍ بشريٍّ أو كموافقة لأهل الكتاب ريثما يترلُ النصُّ القرآنيُّ المناسب .. والحديث التالي يُبيّنُ هذه الحقيقةَ بشكلٍ جلي ..

صحيح البخاري (٦٣٣٥) :

حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا الشَّيْبَانِيُّ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى عَنْ الرَّجْمِ فَقَالَ رَجَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ أَقَبْلَ النُّورِ أَمْ بَعْدَهُ قَالَ لَا أَدْرِي تَابَعَهُ عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ وَخَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَالْمُحَارِبِيُّ وَعَبِيدَةُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ الشَّيْبَانِيِّ وَقَالَ بَعْضُهُمْ الْمَائِدَةِ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ

صحيح مسلم (٣٢١٤) :

و حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى ح و حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَاللَّفْظُ لَهُ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ الشَّيْبَانِيِّ **قَالَ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى هَلْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَعَمْ قَالَ قُلْتُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَتْ سُورَةُ النُّورِ أَمْ قَبْلَهَا قَالَ لَا أَدْرِي**

.. السؤال في هذا الحديث ، هل كان الرجمُ قبل نزول سورة النور أم بعدها ، وهي السورة التي فيها قـــولُ الله تعـــالى .. ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] .. هذا السؤال يدلُّ على استقصاءٍ لِفعل الرجم ، ولتاريخِهِ مقارنةً مع نزول هذه الآية الكريمة .. وفي هذا دليلٌ تاريخي على أنَّ بعضَ أفرادِ الجيل الأوّل كان يرى السنّةَ على أنّها فقط ما تعلّق بتفصيل كليّاتِ نصٍّ قـــرآنيّ ، وبالعملِ في أحكام ذلك النص .. وفي هذا بيانٌ يتعلّقُ بقولِ الله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ ﴾ [آل عمران : ١٠١]

.. فالرسولُ ما زال فينا ، بينما النبيُّ كشخصٍ توفّى .. وهذا ما قرأناه بخـــتمِ صـــفةِ النبوّةِ دون صفةِ الرسالة في قولِه تعالى ..

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾

[الأحزاب : ٤٠]

.. لو كان منهجُ الرسالةِ الخاتمةِ لا يتعدّى الأحكامَ التي وصلتنا عبرَ الروايات التاريخيّة ، والتي وقعت خلال الجيل الأوّل ، وأنَّ الفكرَ الإسلاميَّ قد أُنجزَ سابقاً و لم يبقَ لنا إلاّ أنْ نحفظَ عن ظهرِ قلب ما قيل ، وأنّه لا تُوجدُ أحكامٌ يمكن استنباطها للأجيال اللاحقة .. لو كان الأمر كذلك لكان منهجُ الرسالةِ الخاتمة محتوىً في التاريخ ، ولما كان صالحاً لكلِّ زمانٍ ومكان ، ولَما كان معنىً للكثير من آياته الكريمة التي تأمرُ بتدبّره وتعقّلِ آياته .. لو كان الأمْرُ كذلك .. فكيف بنا أنْ نفهمَ قَوْلَ الله تعالى : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾ [ص : ٨٨] .. لو كان الأمْرُ كذلك .. فكيف بنا أنْ نفهمَ قَوْلَ الله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣]

.. القرآنُ الكريم لم يُنزَل على الرسول ﷺ دفعةً واحدة ، حتى يكونَ كُلُّ عملٍ أو قولٍ أو إقرارٍ منه ﷺ سنّةً يجبُ اتّباعُها كما يقولون .. يقول تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦]

.. إذاً لا بُدّ لنا من أن نضعَ الروايةَ في ميزان القرآن الكريم لنعرفَ هل هي من السنّةِ أم من الأعمال التي وقعت قبل نزول النصِّ القرآني المناسب .. هذا فضلاً عن معرفةِ مصداقيّةِ ثبوتِ نقلِها ، هل بالفعل وقعت أم أنّها لُفّقت على الرسول ﷺ كما سنرى إن شاء الله تعالى لاحقاً .. ولا بُدَّ من التدبّرِ المستمرِّ لكتابِ الله تعالى في كلِّ زمانٍ ومكان ، لاستنباط الأدلّة التي يحملُها كتابُ الله تعالى لكلّ جيل ..

.. الكثيرون ممّن يحسبون أنفسَهم أوصياء على دين الله تعالى ، وناطقين باسمه جلّ وعلا ، مُكلِّفين أنفُسَهم بذلك ، يُقدّمون التاريخَ برواياته ورجالاته صنماً يحول بين الأمّةِ وبين تدبّرها السليم لكتاب الله تعالى .. فالزعم بأنَّ السنّةَ هي كلُّ ما قاله ﷺ أو فعله أو أقرّه ، هو جهلٌ بحقيقةِ السنّة الشريفة ، ووضْعُ سقفٍ للتطوّر الفكري للبشريّةِ عند عتبةٍ لا تتجاوزُ السقفَ الفكريَّ للأجيال الأولى ، وهذا الزعْمُ ليس أكثرَ من عصبيّاتٍ وعواطفَ يتمُّ فيها تأطير الفكر تأطيراً لا يجوز تجاوزه ..

.. يرفعون روايات التاريخ إلى مستوى النصِّ القرآنيّ ، مُعرضين عن حقيقةِ الدلالات الواضحة وضوح الشمس وسط النهار ، والتي يحملُها قولُ الله تعالى ..

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦]

.. فآياتُ الله تعالى (القرآن الكريم) ، لا يُرْفَعُ إلى درجتها من التسليم والإيمان اليقيني أيُّ حديثٍ خارج دفتي كتابِ الله تعالى ، هذا ما يقرؤه من هذه الآيةِ الكريمة كلُّ عاقلٍ يخافُ الله تعالى .. فكلُّ الشعارات البرّاقة لعابدي أصنامِ التاريخ والتي ليست أكثرَ من ذرٍّ للرماد في العيون ، تسقطُ أمام الدلالات الواضحة لهذه الآية الكريمة ..

.. إنَّ مفهوم السلفيّة التاريخيّة الداعية للعودةِ إلى عدمِ تجاوزِ ما وقع في الجيل الأوّل ، كما يطرحُهُ الكثيرُ منَ المُنظِّرين ، يُنافي مفهومَ السنّةِ الشريفةِ من أساسِه .. لأنّه مفهومٌ مبنيٌّ على كوْنِ السنّةِ الشريفةِ لا تتجاوزُ ما حصلَ في الجيل الأوّل ، فهو مفهومٌ مبنيٌّ على كوْنِ دلالات كتابِ الله تعالى لا تتجاوزُ ما أدركَهُ رجالاتُ الأجيال الأولى ، وبالتالي نرى أنَّ المنظّرين لهذا المفهوم يُحاربون كُلَّ جديدٍ مهما كان هذا الجديد ، دون أنْ ينظروا مُجرّدَ نظرٍ في حقيقته وفي حقيقة الأدلّة التي يحملُها ، وفي الوقتِ ذاتِه يُقرّون بكلِّ ما وصلنا خلال التاريخ مهما حمل من تناقض وتعارض لكتاب الله تعالى ولثوابت العلم والمنطق .. وسنرى لاحقاً هذه الحقيقةَ بأمِّ أعيننا ..

.. مُشكلةُ مُعظمِ أولئك المنظّرين ، أنّهم يستشهدون على تنظيرهم بآياتٍ كريمةٍ لا يقفون عند دلالاتِها .. فعلى سبيل المثال ، يستشهدون بقولِه تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ ﴾ [الحشر : ٧] ، بأنّه يعني كُلَّ ما قالَه ﷺ أو فعلَه أو أقرّه ، وليسوا مستعدّين لأن يُعيروا انتباهاً لكون جميعِ تلك الآيات التي يأمرُ اللهُ تعالى بها طاعةَ رسوله تتعلّقُ بصفةِ الرسالةِ حصراً ، بل يقومون بذرِّ الرماد في عيون من تُوجَدُ عنده بذرةٌ لمعرفة الحقيقة ولتدبّرِ كتابِ اللهِ تعالى ..... يستشهدون بقولِه تعالى .. ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ، على أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ تدعوا إلى اتّباعِ منهجِ السابقين دون أيِّ تدبّرٍ عقليٍّ لكتاب الله تعالى .. يقومون بذلك مُعرضِين عن كَوْن العبارة القرآنيّة هي : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وليست : (ويتَّبع غيرَ سبيل الأوّلين) ، وليست : (ويتَّبع غيرَ سبيل السابقين) ، وليست (ويتَّبع غيرَ سبيل الآباء) .. إنَّ سبيلَ المؤمنين هو صراطُ الله تعالى القرآنُ الكريم .. يقولُ تعالى ..

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

.. والمؤمنون ليسوا في جيلٍ دون غيره .. فلماذا يتمُّ حصر سبيل المؤمنين بأجيالٍ محدَّدة ، بل بما رُوي عن أفعال وأقوال أجيال محدّدة ؟!!! .. فهل انتهت صفة الإيمان عند تلك الأجيال ؟!!!!!! ..

.. وأيُّ تأويل لهذه العبارات القرآنيّة على أنَّ سبيلَ المؤمنين يختلفُ عن دلالات كتابِ الله تعالى ، ويتعلّقُ بالتاريخ ورجالاتِه ورواياتِه ، وبما قيل عن الأجيال الأولى ، إنّما هو تأويلٌ غيرُ سليمٌ ينقضُه كتابُ الله تعالى جملةً وتفصيلاً ، ويضعُ أصحابه فيما حذّرَ الله تعالى منه :

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٢ – ٢٣] ..

.. هذا الظلام الفكري الذي يحاولون فرضه على الأمّة يضعهم في النفق الذي حذّر الله تعالى من الدخول فيه ..

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٣ – ١١٤]

.. يذرّون الرماد في الأعين فيقولون : رواياتُ الأحاديث (التي يسمّونها بالسنّة) ، محفوظةٌ من قِبَل الله تعالى ، كحفظه جلّ وعلا للنصِّ القرآني ، مُستشهدين بقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .. فيقولون السنّة وُصفت – في هذه الآية الكريمة – بالذكر ، والذكر تكفّل الله تعالى بحفظه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .. ويستنبطون من ذلك أنَّ رواياتهم محفوظة كالقرآن الكريم ..

.. قبل كلِّ شيء .. نحن لا ننكر حفظَ الله تعالى للسنّة الشريفة الحق كأحكامٍ مُستنبطة من النصِّ القرآني .. ولكنَّ روايات التاريخ التي يسمّونها بالسنّة ، هي روايات جُمعت من أفواه الرجال بعد موت النبي ﷺ بقرون كما سنرى لاحقاً ، ولا يمكن الجزم بأنّها عين السنّة ، فالسنّة لا تُناقض القرآن الكريم ، وكثيرٌ من روايات التاريخ التي يُزعَم أنَّها عين السنّة ، متناقضة فيما بينها ، ومناقضة لكتاب الله تعالى ، كما سنرى بأمِّ أعيننا إن شاء الله تعالى ..

.. ونردُّ على استشهادهم هذا فنقول : نعم .. لقد وُصِفَتْ السنّةُ الحقُّ في كتاب الله تعالى بالذكر كما يقولون .. ولكنّها وُصفتْ متعلّقةً بصيغة الإنزال وليس بصيغة التنزيل : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ ، والقرآن الكريم في الآية التي يستشهدون بها وُصف متعلّقاً بصيغة التنزيل وليس بصيغة الإنزال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .. وحاش لله تعالى أن يكون ذلك مصادفةً ، أو أن يكون دون حكمةٍ مرادة من الله سبحانه وتعالى ..

.. وقد بيّنت في النظرية السادسة (سلّم الخلاص) ، وفي كتاب المعجزة الكبرى ، بيّنت بشكلٍ مُفصَّلٍ كيف أنَّ النصَّ القرآنيَّ هو الوحيد الذي نزَّلَه اللهُ تعالى من عندِه ، في حين يشترك مع باقي الكتب السماوية بصفة الإنزال ، ولا مجال في هذا السياق لشرح ذلك بشكلٍ مُفَصَّل ، فهذه حقيقة قرآنيّة واضحة وجليّة ..

.. وبالتالي فحيثما نرى نصّاً قرآنيّاً يصف تنزيلاً لنصٍّ سماويٍّ من عند الله تعالى ، فهذا يعني النصَّ القرآنيّ حصراً ، ولا يعني أيَّ نصٍّ آخر .. أمَّا صيغة الإنزال فتعني كلَّ الكتب السماويّة بما فيها القرآن الكريم ، وتعني – أيضاً – السنّة الشريفة المُستنبطة – أصلاً – من النصِّ القرآني ، كما سنرى في المحطّة القادمة ..

.. إذاً .. قولُه تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، يُبيّنُ لنا حفظَ الله تعالى للقرآن الكريم حصراً ، دون أيِّ نصٍّ آخر .. فكلمةُ الذكر هنا تعني القرآن الكريم حصراً ، بدليل تعلّقها بصيغة التنزيل من عند الله تعالى ، وليس بصيغة الإنزال .. ويكون حفظُ الله تعالى للسنّةِ الشريفة هو من بابِ كونها محتواةً في النصِّ القرآني

الذي تكفّلَ اللهُ تعالى بحفظه .. فالسنّةُ الشريفةُ المحفوظةُ هي المحتواةُ في النصِّ القرآنيِّ المُنزَّل من عند الله تعالى ، والذي تكفّلَ اللهُ تعالى بحفظه .. وليست السنّةُ الحقُّ المحفوظة من قِبَل الله تعالى نصّاً مستقلاً هي روايات الأحاديث كما يُفترى على منهج الله تعالى ..

.. ونحن لا نخطِّئ من يذهب إلى القول بأنَّ الذكر المعني بقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ هو النص القرآني وليس السنّة الشريفة ، فالعبارة التالية لها مباشرة ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ نراها بصيغة المبني للمجهول ، بمعنى أنَّ الله تعالى لم يقل (لتبيّن للناس ما نزّلنا إليهم) ، إنّما يقول جلّ وعلا ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ، فكلمة ﴿ نُزِّلَ ﴾ واضحة وجليّة أنَّها بصيغة المبني للمجهول ، وهذا يحتمل أن تكون العبارة﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ متعلّقة بالكتب السماويّة الأخرى ، وبالتالي فالعبارة القرآنيّة السابقة لها مباشرة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ تعني – وفق هذا التصوّر – النصّ القرآني ... وكنّا قد بيّنا أنَّ النصَّ القرآني هو النصّ السماوي الوحيد الذي نزّله الله تعالى من عنده جلّ وعلا ، بينما وردت التوراة بصيغة التنزيل المتعلّقة بصيغة المبني للمجهول ، وليس بصيغة يتعلَّق فيها التنزيل بالذات الإلهيّة ﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [الحجر : ٩] ..

.. إذاً .. سواء حُملت العبارة القرآنيّة ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ على السنّة الشريفة ، أم على القرآن الكريم ، والأمران محتملان ، فهذا لا يعني أبداً استقلاليّةً لها عن كتاب الله تعالى ، ولا يعني أنَّها تحمل ما لا يحمله كتاب الله تعالى ... السنّة الشريفة هي مفصِّلة ومفسِّرة لكليّات كتاب الله تعالى ، وهذا عين ما ينطق به قول الله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ..

.. ألم نر في المحطّة السابقة كيف أنَّ القرآن الكريم هو الملجأُ والمرجعُ الوحيد الذي لا يُوجَد ملجأٌ ومرجعٌ دونه حتى للنبيّ ﷺ ؟ ..

﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٧]

.. حينما يقول تعالى ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴾ فهذا يعني أنّه ﷺ [ومن بعده كلّ من يحمل منهج الله تعالى] لن يجد دون كتاب الله تعالى مُلتَحَداً .. فكيف إذاً تكون هناك نصوصٌ دون كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) يمكننا أن نعتبرها ملجأً ومرجعاً (ملتَحَداً) لنا دون كتاب الله تعالى ؟!!! ..